مقدمة

نحمدك اللهم أن هديتنا صراطاً سوياً، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد الذي أنزلت عليه قرآناً عربيًّاً، ورفعته في سماء السيادة والعظمة مكاناً علياً، وكلِّ من دعا إلى سبيلك مخلصاً تقياً، أما من زاغ عن الهدى، واتخذ المضلين عضداً، فإليك إيابه، وعليك حسابه.

أما بعد:

فلقد بعث الله محمداً ﷺ بدعوة تملأ القلوب نوراً، وتُشْرِقُ بها العقول رُشداً، فسابق إلى قبولها رجال عقلاء، ونساء فاضلات، وصبيان لا زالوا على فطرة الله، وبقيت سائرة في شيء من الخفاء، وكفارُ قريش لا يلقون لهم بالاً، حتى أخذ رسول الله ﷺ يقرع بها الأسماع في المجامع، ويحذر من عبادة الأصنام، ويسفّه أحلام من يعبدونها، فكان ذلك مثيراً لغيظ المشركين، وحافزاً لهم على مناوأة هذه الدعوة، والصد عن

سبيلها، فوجدوا في أيديهم وسيلة، هي أن يفتنوا المؤمنين، ويسوموهم سوء العذاب؛ حتى يعودوا إلى ظلمات الشرك، وحتى يُرْهبوا غيرهم ممن تحدثهم نفوسهم بالدخول في دين القَيِّمة.

أما المسلمون فمنهم من كانت له قوة من نحو عشيرة أو حلفاء يكُفُّوُن عنه كل يد تمتد إليه بأذى.

ومنهم المستضعفون وهؤلاء هم الذين وصلت إليهم أيدي المشركين وبلغوا من تعذيبهم كل مبلغ.

ومن هؤلاء من يناله العذاب من أقرب الناس إليه نسباً.

ولما رأى رسول الله ﷺ ما يقاسيه أصحابه من البلاء وليس في استطاعته يومئذ حمايتهم أذن لهم في الهجرة للحبشة وقال: «**إن بها ملكاً لا يُظلم الناس عنده، فلو خرجتم إليه حتى يجعل الله لكم فرجاً**».

فكان ذلك بداية الهجرة، ثم بعد ذلك بدأت الهجرة للمدينة، حيث هاجر من هاجر من الصحابة، ثم تبعهم رسول الله ﷺ.

هذا هو سبب الهجرة، أما سبب التأريخ بها، فقد كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب كتاباً يقول فيه: «إنه يأتينا منك كتبٌ ليس لها تاريخ»، فجمع عمر الناس يستطلع رأيهم فيما يكون به التاريخ، فقال بعضهم: «أرِّخ بالمبعث»، وقال بعضهم: «أرِّخ بالهجرة».

فقال عمر رضي الله عنه: «الهجرة فرقت بين الحق والباطل؛ فأرِّخوا بها».

وهذه إشارة إلى المزية التي استحقت بها الهجرة أن تكون مبدأ التاريخ العام؛ حيث أقبل الناس بعدها إلى الإسلام جهرة لا يخشون إلا رب العالمين.

محمد بن إبراهيم الحمد
الزلفي: الرمز البريدي 11932
ص.ب: 460
www.toislam.net

الدروس المستفادة من الهجرة

يستفاد من الهجرة الشريفة دروس عظيمة، ويستخلص منها فوائد جمة، ويُلْحظ فيها حكم باهرة، يُفيد منها الأفراد، وتُفيد منها الأمة بعامة، وذلك في شتى مجالات الحياة، ومن تلك الدروس والفوائد والحكم ما يلي:

1ـ ضرورة الجمع بين التوكل على الله والأخذ بالأسباب:

فالتوكل في لسان الشرع يراد به توجه القلب إلى الله حال العمل، واستمداد المعونة منه، والاعتماد عليه وحده؛ فذلك سر التوكل وحقيقته، والذي يحقق التوكل هو القيام بالأسباب المأمور بها؛ فمن عطلها لم يصحَّ توكله؛ فلم يكن التوكل داعية إلى البطالة أو الإقلال من العمل، بل لقد كان له الأثر العظيم في إقدام عظماء الرجال على جلائل الأعمال التي يسبق إلى ظنونهم أن استطاعتهم وما لديهم من الأعمال الحاضرة يَقْصُران عن إدراكها؛ ذلك أن التوكل من أقوى الأسباب في

حصول المراد ودفع المكروه، بل هو أقواها؛ فاعتماد القلب على الله-عز وجل-يستأصل جراثيم اليأس، ويجتث منابت الكسل، ويشد ظهر الأمل الذي يلج به الساعي أغوار البحار العميقة، ويقارع به السباع الضارية في فلواتها.

هذا ولرسول الله-عليه الصلاة والسلام-القِدْحُ المُعلَّى، والنصيب الأوفى من هذا المعنى؛ فلا يُعْرَفُ بَشَرٌ أحق بنصر الله، وأجدر بتأييده من هذا الرسول الذي لاقى في جنب الله ما لاقى، ومع ذلك فإن استحقاق التأييد الأعلى لا يعني التفريط قيد أنملة في استجماع أسبابه وتوفير وسائله.

ومن ثم فإن رسول الله ﷺ أحكم خطة هجرته، وأعد لكل فرض عُدَّتَه، ولم يدع في حسبانه مكاناً للحظوظ العمياء، ثم توكل بعد ذلك على من بيده ملكوت كل شيء.

وكثيرًا ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيباً حسناً، ثم يجيء عَوْنٌ أعلى يجعل هذا النصر مضاعف الثمار.

ولقد جرت هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة على

هذا الغرار؛ فقد استبقى معه أبا بكر وعلياً ـ رضي الله عنهما ، وأذن لسائر المؤمنين بتقدمه إلى المدينة، فأما أبو بكر فإن الرسول ﷺ قال له حين استأذنه؛ ليهاجر: «**لا تعجل؛ لعل الله أن يجعل لك صاحباً**».

وأحس أبو بكر بأن الرسول ﷺ يعني نفسه بهذا الرّد، فابتاع راحلتين، فحبسهما في داره يعلفهما، إعداداً لذلك الأمر.

أما عليٌّ فقد هيّأهُ الرسول ﷺ لدور خاص يؤديه في هذه المغامرة المحفوفة بالأخطار، ألا وهي مبيت علي في مكان النبي ﷺ إذا أراد الخروج إلى المدينة.

ويلاحظ أن النبي ﷺ كتم أسرار مسيره؛ فلم يطلع عليها إلا من لهم صلة ماسة، ولم يتوسع في إطْلاعهم إلا بقدر العمل المنوط بهم.

ثم إنه استأجر خبيراً بطريق الصحراء؛ ليستعين بخبرته على مغالبة المُطَالِبين، وهو عبد الله بن أُريقط الليثي، وكان هادياً ماهراً بالطريق، وكان على دين قومه قريش، فَأَمَّناه على

ذلك، وسلَّما إليه راحلتيهما، وواعداه في غار ثور بعد ثلاث.

ومع هذه الأسباب لم يتكل عليها النبيﷺ بل كان قلبه متعلقاً بالله ـ عزّ وجل ـ فجاءه التوفيق والمدد والعون من الله.

ويشهد لذلك أنه لما أبقى علياًرضي الله عنه ليبيت في مضجعه، وهمَّ بالخروج من منزله الذي يحيط به المشركون، وتقطعت أسباب النصر الظاهرة، ولم يبق من سبب إلا سنةُ تأييد الله الخفية ـ أخذ حصيات ورمى بها وجوه المشركين؛ فأدبروا.

وكذلك الحال لما كان في الغار، ففي الصحيحين أن أبا بكررضي الله عنه قال: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن؛ فإن الله معنا** ».

والدرس المستفاد من هذه الناحية هو أن الأمة التي تريد أن تخرج من تيهها، وتنهض من كبوتها لا بُدّ أن تأخذ بأسباب النجاة وعُدَد النهوض، ثم تنطوي قلوبها على سراج من التوكل على الله، وأعظم التوكل على الله، التوكل عليه ـ عز

وجل-في طلب الهداية، وتجريد التوحيد، ومتابعة الرسول، وجهاد أهل الباطل، وحصول ما يحبه الله ويرضاه من الإيمان، واليقين، والعلم، والدعوة؛ فهذا توكل الرسل، وخاصة أتباعهم.

وما اقترن العزم الصحيح بالتوكل على من بيده ملكوت كل شيء إلا كانت العاقبة رشداً وفلاحاً ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: 159).

وما جمع قوم بين الأخذ بالأسباب وقوة التوكل على الله إلا أحرزوا الكفاية لأن يعيشوا أعزة سعداء.

2ـ ضرورة الإخلاص، والسلامة من الأغراض الشخصية: فالإخلاص روح العظمة، وقطب مدارها، والإخلاص يرفع شأن الأعمال حتى تكون مراقي للفلاح، والإخلاص يجعل في عزم الرجل متانة، فيسير حتى يبلغ الغاية.

ولولا الإخلاص يضعه الله في قلوب زاكيات لحُرم الناس

من مشروعات عظيمة تقف دونها عقبات.

ومن مآخذ العبرة في قصة الهجرة أن الداعي إلى الإصلاح متى أوتي حكمة بالغة، وإخلاصًا نقيًّا، وعزماً صارماً هَيَّأَ الله لدعوته بيئة طيّبة فتقبُلها، وزيَّنها في قلوب قوم لم يلبثوا أن يسيروا بها، ويطرقوا بها الآذان، فَتُسيغها الفطرُ السليمةُ، والعقول التي تقدّر الحُجج الرائعة حق قدرها.

وهكذا كانﷺ فلم يرد بدعوته إلا الإخلاص لله، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور؛ فكان متجرداً من حظوظ النفس ورغائبها؛ فما كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ خاملاً؛ فيطلب بهذه الدعوة نباهة شأن ووجاهة؛ فإن في شرف أسرته، وبلاغة منطقه، وكرم خلقه ما يكفيه لأن يحرز في قوم الزعامة لو شاء.

وما كان مُقِلاً حريصاً على بسطة العيش؛ فيبغي بهذه الدعوة ثراءً؛ فإن عيشه يوم كان الذهب يصب في مسجده رُكاماً لا يختلف عن عيشه يوم كان يلاقي في سبيل الدعوة أذىً كثيراً.

ثم إن الهجرة كان دليلاً على الإخلاص والتفاني في سبيل العقيدة؛ فقد فارق المهاجرون وطنهم، ومالهم، وأهليهم، ومعارفهم؛ إجابة لنداء الله ورسولهﷺ .

وهذا درس عظيم يفيد منه المسلمون فائدة عظمى وهي أن الإخلاص هو السبب الأعظم لنيل المآرب التي تعود على الأفراد والأمة بالخير.

3ـ الاعتدال حال السراء والضراء: فيوم خرج ـعليه الصلاة والسلامـ من مكة مكرهاً لم يخنع، ولم يذل، ولم يفقد ثقته بربِّه.

ولما فتح الله عليه ما فتح، وأقر عينه بعز الإسلام، وظهور المسلمين لم يَطِشْ زهواً، ولم يتعاظم تيهاً؛ فعيشته يوم كان في مكة يلاقي الأذى ويوم أخرج منها كارهاً كعيشته يوم دخل مكة ظافراً، وكعيشته يوم أظلت رايته البلاد العربية، وأطلّت على ممالك قيصر ناحية تبوك.

وتواضعه وزهده بعد فتح مكة وغيرها كحاله يوم كان يدعو

وحيداً وسفهاء الأحلام في مكة يضحكون منه، ويسخرون.

كُلاً بلوتُ فلا النعماء تُبطرني ولا تَخَشَّعتُ من لأوائها جزعاً

والدرس المستفاد من هذا المعنى واضح جلي؛ إذ الأمة تمر بأحوال ضعف، وأحوال قوة، وأحوال فقر، وأحوال غنى؛ فعليها لزوم الاعتدال في شتى الأحوال؛ فلا تبطرها النعماء، ولا تُقَنِّطها البأساء، وكذلك الحال بالنسبة للأفراد.

4ـ اليقين بأن العاقبة للتقوى وللمتقين: فالذي ينظر في الهجرة بادئ الرأي يظن أن الدعوة إلى زوال، واضمحلال.

ولكن الهجرة في حقيقتها تعطي درساً واضحاً في أن العاقبة للتقوى وللمتقين.

فالنبي ﷺ يعلِّم بسيرته المجاهدَ في سبيل الحق أن يثبت في وجه أشياع الباطل، ولا يَهَنَ في دفاعهم، وتقويم عِوَجِهم، ولا يَهُولُه أن تقبل الأيام عليهم، فيشتدَّ بأسهم، ويُجْلِبوا بخيلهم ورجالهم؛ فقد يكون للباطل جولة، ولأشياعه صولة، أما العاقبة فإنما هي للذين صبروا والذين هم مصلحون.

فلقد هاجر ـ عليه الصلاة والسلام ـ من مكة في سواد الليل مختفياً وأهلها يحملون له العداوة والبغضاء، ويسعون سعيهم للوصول إلى قتله، والخلاص من دعوته، ثم دخل المدينة في بياض النهار مُتَجلِّياً وقد استقبله المهاجرون والأنصار بقلوب ملئت سروراً بمقدمه، وابتهاجاً بلقائه، وصاروا يتنافسون في الاحتفاء به، والقرب من مجلسه، وقد هيئوا أنفسهم لفدائه بكل ما يعز عليهم، وأصبح ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما قال أبو قيس صرمة الأنصاري:

ثوى بقريش بضع عشرة حجة يذكر لو يلقى حبيبا مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه فلم ير من يؤوي ولم ير داعيا
فلما أتانا واستقر به النوى وأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وأصبح لا يخشى ظلامة ظالم بعيد ولا يخشى من الناس باغيا
بذلنا له الأموال من حلٍّ مالنا وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
نعادي الذي عادى من الناس جميعا ولو كان الحبيب المصافيا
ونعلم أن الله لا رب غيره وأن كتاب الله أصبح هاديا

5ـ ثبات أهل الإيمان في المواقف الحرجة: ويبدو ذلك في جواب النبيﷺ لأبي بكرؓ تطميناً له على قلقه: « **يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما** ».

فهذا مثال من أمثلة الصدق والثبات، والثقة بالله، والاتكال عليه عند الشدائد، وهو دليل واضح على صدق الرسول، ودعوى النبوة؛ فهو في أشد المآزق حرجاً ومع ذلك تبدو عليه أمارات الاطمئنان، وأن الله لن يتخلى عنه في تلك الساعات الحرجة.

تُرى هل يصدر مثل هذا الاطمئنان عن مُدَّعٍ للنبوة ؟ ففي مثل هذه الحالات يبدو الفرق واضحاً بين أهل الصدق وأهل الكذب، فأولئك تفيض قلوبهم دائماً وأبداً بالرضا عن الله، والثقة بنصره، وهؤلاء يتهاوون عند المخاوف، وينهارون عند الشدائد، ثم لا تجد لهم من الله ولياً ولا نصيراً.

6ـ أن من حفظ الله حفظه الله: ويؤخذ هذا المعنى من حال زعماء قريش عندما ائتمروا بالنبي ﷺ ليعتقلوه، أو يقتلوه،

أو يخرجوه قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الأنفال: 30).

فأجمعوا بعد تداول الرأي على أن يطلقوا سيوفهم تخوض في دمه الطاهر، فأوحى الله إلى رسوله ما أوحى، فحثا في وجوههم التراب، وبارح مكة من حيث لا تراه أعينهم.

وهذا درس عظيم، وسُنَّةٌ ماضية في أنَّ مَنْ حفظ الله حفظه الله، والحفظُ من الله شامل، وأعظم ما في ذلك أن يُحْفَظَ الإنسان في دينه ودعوته، وهذا الحفظ أيضاً يشمل حفظ البدن، وليس بالضرورة أن يُعصَمَ؛ فلا يُخلَصَ إليه البتة؛ فقد يصاب؛ لترفع درجاته، وتقال عثراته، ولكن الشأن كل الشأن في حفظ الدين والدعوة.

7ـ أن النصر مع الصبر: فقد قضى ـ عليه الصلاة والسلام ـ في سبيل دعوته في مكة ثلاثة عشر حولاً وهو يلاقي نفوساً طاغيةً، وألسنة ساخرة، وربما لقي أيدياً باطشة.

كان هَيِّناً على الله أن يصرف عنه الأذى جملة، ولكنها سنة الابتلاء يؤخذ بها الرسول الأكرم؛ ليستبين صبره، ويعظم عند الله أجره، وليتعلم دعاة الإصلاح كيف يقتحمون الشدائد، ويصبرون على ما يلاقون من الأذى صغيراً كان أم كبيراً.

8ـ ظهور المواقف البطولية: فالنبيﷺ تنتهي إليه الشجاعة بأسرها، ومن مواقفه البطولية ما كان من أمر الهجرة وذلك لما اجتمعت عليه قريش ورمته عن قوس واحدة، وأجمعت على قتله، والقضاء على دعوته، فما كان منه إلا أن قابل تلك الخطوب بجأشٍ رابط، وجبين طَلْقٍ، وعزم لا يلتوي.

ولاحت نجومٌ للثريا كأنها جبين رسول الله إذ شاهد الزحفا

ولقد كان ذلك دَأْبَهُـ عليه الصلاة والسلامـ فلم تكن تأخذه رهبة من أشياع الباطل وإن كثر عددهم، بل كان يلاقيهم بالفئات القليلة ويفوز عليهم فوزاً عظيماً، وكان يقابل الأعداء بوجهه، ولا يوليهم ظهره وإن تزلزل جنده، وانصرفوا جميعاً من حوله.

وكان يتقدم في الحرب حتى يكون موقفه أقرب موقف من العدو، وإذا اتقدت جمرة الحرب، واشتدّ لهبها أوى إليه الناس، واحتموا بظله الشريف؛ فلم يكن يتوارى من الموت، أو يُقَطِّب عند لقائه؛ كيف وهو يتيقن أن موتَه هو انتقال من حياة مخلوطة بالمتاعب والمكاره إلى حياة أصفى لذة، وأهنأ راحةً، وأبقى نعيماً ؟

ولقد كان لهذه المواقف البطولية الرائعة موضع قدوة لأصحابه ومن جاء بعدهم؛ فحقيق على الأمة التي تريد العزة، والرفعة، والسعادة أن تكون على درجة من الشجاعة؛ حتى تقر بها أعينُ حلفائها، ويكون لها مكانة مهيبة في صدور أعدائها.

وحقيق على علماء الإسلام وزعمائه أن يقتدوا برسول الله ﷺ في أدب الشجاعة التي هي الإقدام في حكمة؛ فقد جرت سنة الله على أن الحق لا يمحق الباطل، وأن الإصلاح لا يدرأ الفساد إلا أن يقيض الله لهما رجالاً يؤثرون الموت في جهاد

على الحياة في غير جهاد.

9ـ الحاجة إلى الحلم، وملاقاة الإساءة بالإحسان: فلما كان النبي ﷺ في مكة قبل الهجرة كان يلقى من الطُّغاة، والطَّغام أذىً كثيراً، فيضرب عنه صفحاً، أو عفواً؛ فما عاقب أحداً مسَّه بأذى، ولا أغلظ له في القول، بل كان يلاقي الإساءة بالإحسان، والغلظة بالرفق.

ومما يجلِّي هذا المعنى ما كان منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما عاد إلى مكة ظافراً فاتحاً حيث تمكن ممن كانوا يؤذونه بصنوف الأذى فقال لهم: «**ما تظنون أني فاعل بكم؟**».

قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

فهذا دأبه وديدنه، يعفو ويصفح، ويدفع السيئة بالحسنة إلا أن يتعدى الشر، فيلقي في وجه الدعوة حجراً، أو يحدث في نظام الأمة خللاً؛ فَلِرَسول الله ﷺ يومئذ شأنه الذي يقول فيه: «**لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**».

فالانتصار ـ إذاً ـ ليس للنفس، ولا للحرص على الحياة.

وإنما هو انتصار للحق، وغضب لحرمات الله ـ عز وجل.

وما الحسام الذي يأمر بانتضائه للجهاد في سبيل الله إلا كمبضع طبيب ناصح يشرط جسم العليل؛ لينزِف دمه الفاسد، أو ليستأصل منه أذى متمكناً؛ حرصاً على سلامته.

فهذه السيرة ترشد رئيس القوم والداعية والعالم أن يوسع صدره لمن يناقشه، ويجادله ولو صاغ أقواله في غِلَظٍ وجفاء؛ فسيرة رسول الله ﷺ هي التي علمت معاوية رضي الله عنه أن يقول: «والله لا أحمل سيفي على من لا سيف له، فإن لم يكن من أحدكم سوى كلمة يقولها؛ ليشتفي بها فإني أجعل له ذلك دبر أذني، وتحت قدمي».

ويقول: «لا أحمل سيفي ما كفاني سوطي، ولا أحمل سوطي ما كفاني مقولي».

10ـ استبانة أثر الإيمان: فلما تنفس الإسلام في بطاح مكة اعتنقه فريق من ذوي العقول السليمة، وما لبث عُبَّاد الأوثان

يؤذونهم في أنفسهم، ويأبون أن يقيموا شعائر دينهم.

ولما كان أولئك المسلمون على إيمان أجلى من القمر يتلألأ في سماء صاحية تَحَمَّلُوا الأذى في صبر وأناة، وكانت مظاهر أولئك الطغاة حقيرة في أعينهم؛ منبوذة وراء ظهورهم حتى أذن الله لهم بالهجرة.

وكذلك الإيمان تخالط بشاشتهُ القلوبَ؛ فيخلق من الضعف عزماً، ومن الخمول نهوضاً، ومن الذلة عِزّاً، ومن البَطالة نشاطاً، ومن الشحِّ كرماً وبذلاً.

وهذا الأثر يعطي درساً عظيماً وهو أن الإيمان يصنع المعجزات، ويأتي بأطيب الثمرات.

وهذا بدوره يدفع أولي الأمر وأهل العلم أن يبذلوا قصارى جُهْدِهم في سبيل تعليمِ الأمةِ أمرَ دينها وقيادتها ـ ولو بالسلاسل ـ إلى دعوة الإيمان والهدى؛ كي تعود لها عزتها السالفة، وأمجادها الغابرة.

11ـ انتشار الإسلام وقوته: وهذا من فوائد الهجرة؛ فلقد

كان الحق بمكة مغموراً بشغب الباطل، وكان أهل الحق في بلاء من أهل الباطل شديد.

والهجرة كانت من أعظم الأسباب التي رفعت صوت الحق على صخب الباطل، وخلَّصت أهل الحق من ذلك البلاء الجائر، وأورثتهم حياة عزيزة، ومقاماً كريماً.

وإذا كانت البعثة مبدأ الدعوة إلى الحق فإن الهجرة مبدأ ظهوره والعمل به في حالتي السر والعلانية.

ولا يبلغ قول الحق غايته، ويأتي بفائدته كاملة إلا أن يصبح عملاً قائماً، وسيرة متَّبعة؛ فالهجرة راشت جناح الإسلام، فذهب يحلق في الآفاق؛ ليمحوا آية الضلالة، ويجعل آية الهداية مبصرة قال تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ (التوبة: 40).

فإنك تجد الآية الكريمة تَذْكُر شيئاً من أمر الهجرة النبوية، وتعد من جملة النعم الجليلة المترتبة عليها جَعْل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا.

علت كلمة الله حقا، وإنما علت على كاهل تلك الدولة التي قامت بين لابتي المدينة، وبسطت سلطاناً لا تستطيع يد المخالفين أن تمسه من قريب ولا من بعيد.

12ـ أن من ترك شيئا لله عوضه الله خيراً منه: فلما ترك المهاجرون ديارهم، وأهليهم، وأموالهم التي هي أحب شيء إليهم ـ أعاضهم الله بأن فتح عليهم الدنيا، وملَّكهم شرقها وغربها.

وفي هذا درس عظيم وهو أن الله ـ عز وجل ـ شكور كريم، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً؛ فمن ترك شيئاً لأجله عوضه خيراً منه، والعِوَض من الله أنواع، وأجلّ ما يُعوِّض به الإنسان أن يُرْزَقَ محبة الله ـ عز وجل ـ وطمأنينة القلب بذكره، وقوة الإقبال عليه؛ فحري بأهل الإسلام أن يُضحُّوا في سبيل

الله، وأن يقدموا محبوبات الله على محبوبات نفوسهم؛ ليفوزوا بخيري الدنيا والآخرة.

13ـ قيام الحكومة الإسلامية: فمن حسنات الهجرة النبوية تلك الأحكام المدنية، والنظم القضائية والأصول السياسية؛ فإنها كانت تنزل بالمدينة حيث أصبح المسلمون في كثرة، وصاروا من المَنَعة بحيث يأخذونها بقوة، ويقومون على إجرائها يوم تنزل والناس يشهدون.

ولو كان آخر عهد الوحي يشبهـ أوَّله لم يزد الإسلام على أن يكون دعوة إلى عقائد وأخلاق وشيء من العبادات؛ فالهجرة هيأت للإسلام أن تكون له حكومة ذات سلطان غالب، وكلمة فوق كل كلمة، والهجرة مكنت الحكومة الإسلامية أن تقضي بشرع الله الحكيم.

وبالسلطان الغالب يُقْهَر الأعداء، وبالشرع الحكيم يعيش الناس بأمن وسعادة.

وكذلك كان شأن النبيﷺ بعد الهجرة، فقد كان من القوة

والمَنَعة وتأييد الله له أن أصبحت الجزيرة العربية في بضع سنين طوعَ يمينه، وموضعَ نفاذِ أمره، وأصبحت الأمة ـ بما شرعه الله من أحكام المعاملات والجنايات، وبما أنار به النفوس من الحكم السامية ـ تتمتع بسياسة عادلة، وحياة زاهرة.

والدرس المستفاد من هذا أن الأمة لا يمكن أن يكون لها سيادة ومنعة إلا إذا حكمت بشرع الله، ونبذت كل ما يخالفه ظهرياً، فإذا ما التمست العزة والسيادة من زبالات أهل الأرض، واستبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير ـ فلن تدرك عِزّاً ولا فلاحاً، والواقع خير شاهد على ما ذُكر.

14ـ قيام المجتمع المسلم: فالمسلمون لا يعدون أنفسهم يعيشون في بلد إسلامي إلا إذا ساد نظام الإسلام بلدهم، وقامت به أحكامه وآدابه كما تقوم به شعائره، وتسود عقائده.

وإذا تعذر على المسلمين إقامة أحكام دينهم، وتأييد أنظمته الاجتماعية، وآدابه الخلقية ـ وجب عليهم الانتقال إلى البلد الذي يُعمل فيه بأحكام الإسلام وآدابه؛ تكثيراً لسواد

المسلمين، وإعزازاً لأمر الدين، واستعداداً لنصره وتأييده في العالمين.

وإذا لم يكن للمسلمين بلد تتوافر فيه هذه الشروط وجب عليهم أن يجتمعوا في بقعة صالحة يقيمون فيها نظام الإسلام حسب استطاعتهم.

فهذه من أعظم حكم الهجرة والبواعث عليها؛ فإذا نشأت النفوس تحت جناح نظام يقيم أحكام الإسلام، ويحمي دعوته، ويحمل على آدابه-كانت قوة للإسلام تعمل على رفعته، وتوسيع دائرته.

أما إذا نشأت تحت جناح يخالف الإسلام، ولا يُربِّي الأمة على آدابه فإن قوتها تكون معطلة عن تأييد الإسلام، وتعميم هدايته.

15ـ اجتماع كلمة العرب، وارتفاع شأنهم: فالهجرة-كما مكّنت للدعوة وإقامة المجتمع والدولة-مكنت لجمع الكلمة؛ فكلمة التوحيد أساس توحيد الكلمة؛ فأمةالعرب كانت متفرقة

متشاكسة، فأصبحت متحدة متآلفة، وكانت مَهيضَةَ الجناح تنظر إليها الأمم بعين الازدراء فأصبحت مكرمة مهيبة الجناب، تفتح البلاد، وتضرب على هذه الأمم بسلطانها الكريم.

وكانت في ظلمات الجهل فأصبحت في نور من العلم، دون أن يُجْلَب إليها من بلاد أجنبية، وإنما كان ذلك من مِشكاة النبوة؛ إذ كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يلقي عليها الحكمةَ بنفسه، ويزكيها بما يتحلى به، أو يدعو إليه من صفات الشرف والحمد.

ويستفاد من هذا أن أمة الإسلام ذات منهج رباني كفيل بجمع الكلمة، وإحراز السعادة في الدنيا والآخرة، بل لا يوجد منهج يكفل ذلك غيره.

16ـ التنبيه على فضل المهاجرين والأنصار: فمن بركات الهجرة على المهاجرين أنهم كانوا يلاقون في مكة أذىً كثيراً، فأصبحوا بعد الهجرة في أمن وسلامة، ثم إن الهجرة ألبستهم ثوب عزة بعد أن كانوا مستضعفين، ورفعت منازلهم عند الله

درجات، وجعلت لهم لسان صدق في الآخرين، وقد سمى الله ـ تعالى ـ الصحابة الذين فروا بدينهم إلى المدينة بالمهاجرين، وصار هذا اللقب أشرف لقب يُدْعَون به بعد الإيمان.

ومن بركات الهجرة على أهل المدينة من آووا ونصروا أنْ علا شأنهم، وبرزت مكانتهم، واستحقوا لقب الأنصار الذي استوجبوا به الثناء من رب العالمين.

17ـ ظهور مزية المدين: فالمدينة لم تكن معروفة قبل الإسلام بشيء من الفضل على غيرها من البلاد، وإنما أحرزت فضلها بهجرة النبي ﷺ وأصحابه المسلمين بحق، وبهجرة الوحي معهم إلى ربوعها، حتى أكمل الله لهم الدين، وأتم عليهم النعمة؛ وبهذا ظهرت مزايا المدينة ظهوراً بيِّناً، فَأُفْرِدت المصنفات بذكر فضائلها، ومزاياها.

18ـ سلامة التربية النبوية: فقد دلت الهجرة على سلامة التربية النبوية للصحابة، فقد صاروا ـ رضي الله عنهم ـ مؤهلين للاستخلاف في الأرض، وتحكيم شرع الله، والقيام بأمره،

والجهاد في سبيله.

ولقد كان من أثر الهجرة أن الصحابة؛ لاستقامتهم وكمال آدابهم وصدق لهجاتهم يعرضون الإسلام في أقوم مثال، وأمثل صورة.

ولقد شهد بذلك الفضلِ الأعداءُ، يقول الإمام مالك رحمه الله : «بلغني أن نصارى الشام لما رأوا أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: والله لهؤلاء خير من حواريِّيْ عيسى عليه السلام ».

وفي هذا درس عظيم وهو أن التربية الحقة القائمة على العقيدة الصحيحة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

19ـ التنبيه على عظم دور المسجد في الأمة: فأول عمل قام به النبيﷺ فور وصوله إلى المدينة، هو بناؤه المسجد؛ لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حوربت، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المسلم برب العالمين، وتنقي قلبه من أدران الأرض.

ولقد تم بناء المسجد في حدود البساطة؛ ففراشه الرمال

والحصباء، وسقفه الجريد، وأعمدته الجذوع.

وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه، وقد تَفْلُتُ الكلاب إليه، فتغدو وتروح فيه.

هذا البناء المتواضع هو الذي تَرَبَّى فيه ملائكة البشر، ومؤدبوا الجبابرة، وفاتحوا البلاد والقلوب، وفي هذا المسجد أذِنَ الرحمنُ للنبيﷺ أن يؤم بالقرآن خِيْرَةَ أمته، فيتعهدهم بأدب السماء من غَبش الفجر إلى غسق الليل.

إن مكانة المسجد في المجتمع المسلم تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادي، فهو ساحة العبادة، وميدان العلم، ومنطلق الجهاد؛ فحري بالأمة أن تعلم دور المسجد، وأن تَقْدُره حق قدره.

20ـ عظم دور المرأة في البناء والدعوة: ويتجلى ذلك من خلال الدور الذي قامت به عائشة، وأختها أسماءـرضي الله عنهماـحيث كانتا نعم المعين والناصر في أمر الهجرة؛ فلم يُخَذِّلا أباهما مع علمهما بخطر المغامرة التي سيقوم بها، بل

لقد كان دورهما أعظم من ذلك؛ حيث حفظتا سر الرّحلة، وجهزتا ما تحتاجه الرحلة تجهيزاً كاملاً، ولقد قطعت أسماء قطعة من نطاقها، فأوكت به الجراب، وقطعت الأخرى وصيَّرتها عصاماً لَفَمِ القِرْبة، فلذلك سميت ذات النطاقين.

وفي هذا الموقف ما يثبت حاجة الدعوة إلى النساء، فهن أرق عاطفة، وأسمح نفساً، وأطيب قلباً.

ثم إن المرأة إذا صلحت أصلحت زوجها، وبيتها وأبناءها، وإخوتها، فينشأ جيل مُؤْثِرٌ للعفة والخلق والطهارة.

وفي هذا ـ أيضاً ـ درس للمرأة المسلمة وهو أن تبذل وسعها في سبيل نشر الخير، ونصرة الحق، وأن تكون معينة لزوجها ووالدها وإخوانها وأبناءها على الدعوة إلى الله ولو أدى ذلك إلى حرمانها من بعض حقوقها؛ فمصلحة الأمة أهم، وما عند الله خير وأبقى.

21ـ عظم دور الشباب في نصرة الحق: ويتجلى ذلك في ما قام به علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما نام في مضجع

النبيﷺ عندما همَّ بالهجرة؛ فضرب أروع الأمثلة في الشجاعة والبطولة.

وكذلك ما قام به عبد الله بن أبي بكر؛ فقد أمره والده أن يتسمع ما تقوله قريش في الرسول وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك من أخبار، وأمر أبو بكر عامر بن فهيرةـ مولاهـ أن يرعى غنمه نهاره، ثم يُرِيْحَها إذا أمسى في الغار، فكان عبد الله بن أبي بكر في قريش يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون في شأن الرسول وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى ويقص عليهما ما علم، وكان عامر في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر، فاحتلبا وذبحا، فإذا غدا عبد الله من عندهما إلى مكة أتبع عامر أثره بالغنم يُعَفِّي عليه، وتلك هي الحيطة البالغة.

ففي موقف عبد الله بن أبي بكر ما يثبت أثر الشباب في نجاح الدعوة ونصرة الإسلام.

وإذا تأملت السيرة رأيت أن أكثر الصحابة كانوا من الشباب

الذين حملوا لواء الدعوة، واستعذبوا من أجلها الموت والعذاب.

وهذا درس عظيم يبين لنا أن الشباب هم عماد الأمة، وإذا وجهوا وجهة صحيحة على نهج الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة، ثم أُعْلِيت هِمَمَهُم، ورفعوا عن سفاسف الأمور ـ كانوا مشاعل هدى، ومصابيح دجى.

22ـ حصول الأُخوَّة وذوبان العصبيات: فمن أعظم حسنات الهجرة ما قام به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ومعنى هذا ذوبان عصبيات الجاهلية، فلا حمِيَّة إلا للإسلام، ولا ولاء إلا له، فتسقط بذلك فوارق النسب، واللون، والجنس، والتراب؛ فلا يتأخر أحد، ولا يتقدم إلا بتقواه ومروءته.

وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عَقْداً نافذاً، لا لفظاً فارغاً، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال، لا تحيةً تثرثر بها الألسنة، ولا يقوم بها أثر.

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال.

ولقد حرص الأنصار، على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين؛ فما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة.

ولقد قدَّر المهاجرون هذا البذل الخالص؛ فما استغلوه، ولا نالوا منه إلا بقدر ما يتوجهون به إلى العمل الحر الشريف.

ولا يخفى ما لهذا الإخاء من دورٍ في البناء والرقي والتعاون.

ويستفاد من هذا الدرس أن الأمة الإسلامية لا بُدَّ أن تجتمع على أخوة الإسلام، وعلى كتاب الله وسنة رسوله، ونهج الأسلاف الكرام، وإلا أصبحت مفككة متناثرة لا يُهاب جنابها، ولا تُسمع كلمتُها.

23ـ إصلاح العقائد الباطلة والسلوك المنحرف، والتربية على العقيدة الصحيحة والأخلاق الحميدة: فلقد كان العالم يتخبط في ظلمات بعضها فوق بعض: ظلمة من الجهل، وظلمة من دناسة الأخلاق، وظلمة من منكر الأعمال، فبعث

الله المصطفى ﷺ ليخرج الناس من هذه الظلمات إلى نور يسعى بين أيديهم في الحياة الأولى، ويهديهم إلى السعادة في الحياة الأخرى؛ فلقد أتى النبي ﷺ بكتاب عظيم مُصلحٍ للعقائد والأخلاق والأعمال، ومنظم لجميع شؤون الحياة، فَتَدَبَّرَتْهُ فئة قليلة واتخذته قائدَها المطاعَ، فكانت خير أمة جاهدت في الله وانتصرت، وغلب فرحمت، وحكمت فعدلت، وساست فأطلقت الحرية من عقالها، وفجرت ينابيع المعارف بعد نضوبها.

واسألوا التاريخ؛ فإن هذه الأمة قد استودعته من مآثرها الغُرِّ ما بَصُرَ بضوئه الأعمى، وازدهر في الأرض ازدهار الكواكب في كبد السماء، فلقد جاهد المصطفى ﷺ الجَهْلَ، وشرُّ الجهل عدمُ معرفة مبدع الكائنات وتركُ التوجه إليه بشتى القربات، وجاهد الأخلاق الرذيلة؛ فكرَّه للنفوس الجزع، والجبن، والبخل، والصَّغار، والكبر، والقسوة، والأثرة، وعلَّمها الصبر، فهان عليها كل عسير، وعلَّمها الشجاعة؛

فحقَّرَ أمامها كلُّ خطير، وعلمها الكرم؛ فجادت في سبيل الخير بكل نفيس، وعلمها العزة؛ فسمت إلى كل مقام مجيد، وعلمها التواضع فتألّفت كلَّ ذي قلب سليم، وعلمها الرّحمةَ، والرّحمةُ رباط التآزر والتعاون على تكاليف الحياة، وعلمها الإيثَار، والإيثارُ من أقصى ما يبلغه الإنسان من مراتب الجود.

فهذا الدين أحدث تحولاً عاماً في حياة الفرد والجماعة، بحيث تغير سلوك الأفراد اليومي، وعاداتهم المتأصلة كما تغيرت نظرتهم إلى الكون والحياة والحكم على الأشياء.

وهذه المعاني إنما تجلت أعظم التجلي بعد الهجرة النبوية الشريفة المباركة.

ونحن اليوم محتاجون ـ من معاني الهجرة وأهدافها وحكمها ـ إلى ما نصلح به ما فسد من عقائد المسلمين، وإلى أن نتخلع في بيوتنا عن الآداب التي تخالف الإسلام، وأن نُعيد إلى هذه البيوت الصدق، والصراحة، والنبل، والاستقامة،

والاعتدال، والتواضع، والعزة، والكرم، والتعاون على الخير، إلى غير ذلك من المعاني السامية؛ فالبيت الإسلامي وطن، بل هو دولة إسلامية، وقبل أن نبدأ في علاج الأمة يجب أن نبدأ بالأقرب فالأقرب؛ فنبدأ في بيوتنا، فنهاجر نحن ومن فيها إلى ما يحبه الله، وننخلع عن كل ما لا يرضيه-عز وجل-ثم نتحرى في مجتمعاتنا أنظمة الإسلام وآدابه، ونهجر كل ما خالفها مما اقتبسناه من غيرنا، وخَذَلْنا به مقاصد الإسلام، فضيَّعنا أغراضه الجوهرية.

وإذا أخذنا بهذه التربية، وتأصَّلت في أذواقنا وميولنا، وتَعَوَّدْنا العمل بها في شتى الميادين-لم تلبث أوطان المسلمين أن تتحول من أوطان عاصية لله إلى أوطان مطيعة لله، ومن أوطان تسود فيها الأنظمة التي تسخط الله إلى أوطان تسود فيها الأنظمة التي ترضي الله، فيكون لهذا الأسلوب من أساليب الهجرة مِثْلُ الآثار التي كانت لهجرة النبيﷺ وأصحابه الأولين.

قال ـ عليه الصلاة والسلام : «**المهاجر من هجر السيئات**» ، وقال: « **المهاجر من هجر الخطايا والذنوب** » .

ولما قيل له: ما أفضل الهجرة ؟ قال: «**من هجر ما حرَّم الله**» .

وأخيراً فإن دروس الهجرة وفوائدها يقصر دونها العد؛ فمن أراد التفصيل والزيادة فليراجع حديث الهجرة في كتب السيرة النبوية ، وليراجع الكتب التي تناولت الهجرة بشيء من البسط والاستجلاء ، مثل كتاب (محمد رسول الله وخاتم النبيين) للشيخ محمد الخضر حسين ، و (السيرة النبوية دروس وعبر) للدكتور مصطفى السباعي ، و (مع الرعيل الأول) للشيخ محب الدين الخطيب وغيرها من الكتب.

وفي الختام أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يرزقنا حسن الاقتداء والاهتداء بنبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، والحمد لله رب العالمين.

الزلفي 18/12/1419 هـ.

الفهرس

الحميدة...........................	